جامعة الشهيد حمة لخضر. الوادي

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

السنة الثانية ماستر: تخصص أدب حديث /2025

امتحان الشعر المغاربي

التصحيح النموذجي

يقول الشاعر **محمد الفائز القيرواني** (1902ـ 1953) في قصيدته " **اسْجَعِي عُصْفورةَ الوادي** "

اسْــجَعِي عُصْــفورةَ الــوادِي الخَصِــيبْ ... بِنَشِــــيدِ الحُــــبِّ في دَارِ الحَبِيــــبْ

واهْتِفِــي قَبْــلَ الضُّــحى، والشــمسُ في ... خِــدْرِها، أوْ فَــاهْتِفي قبــلَ المغِيــبْ

سَــكَرَ الــدَّوحُ عَلَــى سَــجْعِكِ فَاخْــ ... ـتَالَ تِيهًــــا في تَثَنِّيــــهِ العَجِيــــبْ

كُــــلُّ غُصْــــنٍ فَوقَــــهُ عُصــــفُورَةٌ ... مَــنْ رَأَى المنــبرَ مِــنْ غَــير خَطيــبْ؟

هَاجَــــكِ الزَّهْــــرُ عَلَــــى ضِــــفَّتِهِ ... وَارِفُ الظــلّ عَلَــى مَــتْنِ الكَثيــبْ

فــانعَمِي بالشِّــعْر، والحــبِّ فَقَــدْ ... سَمِــعَ الــدَّهْرُ عَلَــى رَغْــمِ الرَّقِيــبْ

وَاهْتِفــي حَيــثُ الضُّــحَى مُؤْتَلِــقٌ، ... وَبَنَــاتُ الــرَّوضِ في ثَــوبٍ قَشِــيبْ

وَأَعِيــــدِي لِيَ أَلحــــانَ الصِّــــبَا ... فَهَواهَــا كَــانَ بالأَمْــس النَصِــيبْ

واسْكُبِــي مِــنْ كُــلّ لَحْــنٍ قَطــرَةً ... عَلَّــني أُطْفِــي بِهَــا حَــرَّ اللهيــبْ

غَــــرِّدِي عُصــــفورتي، وانتفِضِــــي ... في مَسِــيلِ النَّهْــر، أَوْ فــوقَ القَضِــيبْ

ثُمَّ طِــيرِي بَــيْنَ أَجْــواءِ الفَضَــا ... وانــزلي في ذلــكَ البيــتِ الرَّحيــبْ

حَيــثُ حَــلَّ الحسْــنُ، والتيــهُ بــهِ ... وَيطيــبُ العــيشُ للشــادِي الغَريــبْ

قَبِّلِــي عَــني إذَا جئــتِ الحِمَــى ... مَنْــزِلًا حَــلَّ بــه اليــومَ حَبِيــبْ

الجواب: تحليل القصيدة

مفاتيح: النزعة الرومانسية . البعد الدلالي . الصورة الشعرية . الخيال الفني . البنية الإيقاعية .

الشاعر محمد فائز القيرواني واحد من كبار شعراء تونس الذين عرفهم النصف الأول من القرن الماضي ومثلت أشعارهم تحوُّلا فنيا مفصليا في حركة القصيدة المفارقة لرتابة التقليد، والمتبنية للإبدال الشعري الوجداني بما يتضمنه من تحديث على مستوى الخيال الشعري ، ودلالات المعجم، وكذلك فضاء الوزن والإيقاع، ويلتقي الشاعر مع أبي القاسم الشابي، ومنور صمادح ومحمد الحليوي في هذه الانعطافة التي أثمرت عوالمَ من الممارسة الشعرية الأثيرة شديدة الخصوبة، والآخذة بالأنموذج الشعري المشرقي، والمهجري في اتجاهه نحو استثمار طاقات اللغة، وآماد الخيال، ورحابة الذات الشاعرة في تماهيها مع ما حولها من عناصر الوجود، تمثلا بقول الشاعر عبد الرحمن شكري:

ألا يا طَـــــــــائِرَ الفـــــــــرْدَوسِ إن الشـــــــــعرَ وجـــــــــدانُ

"القيرواني" شاعر اللغة التي تستثمرُ طاقات الروح، وتتخذ من البث، والتعبير التخييلي أداة للتأثير الجمالي الذي لا يقف عند حدود الحروف، ويتجاوزها إلى ظلال المعاني، وصور الإيحاء بمسافات الشعور، وأبعاد الإحساس الإنساني الصافي، وهو يحشدُ لذلك أنواع العبارات، وأنماط التشكيل الفني، وألوان الاختيار المعجمي، والموسيقي الذي تتحدد من خلاله تقلبات الذات الشاعرة في أتون عالمها الذي يحملُ تصدّعها حينًا، واستعذابها للحظات العاطفية الحاضرة، والممعنة في الغياب حينًا آخر.

. تتكئ **الدلالة** في المتن النصي كما في العتبة العنوانية على الصورة الطبيعية العفوية في عذريتها، وصفائها لنقل مضمون الحبّ المتماهي مع الحرية كعنصر أساس للشعور الحي بإحساس هذا الحبّ، وهو مطلبٌ تتأسس معه قيمة الحياة بطعوم ما نراه من جمال المكان، وما نسمعه من عذوبة غناء أطياره ، وما نراه من خلابة تأخذ تأنقها من مشاركة من نحب لما نرى ونسمع، " اسجعي عصفورة الوادي" هذه الجملة الأمرية التي تحملُ يقين الإيمان بحق الآخر في الانطلاق والتعبير والغناء كما تحملُ في الوقت ذاته يقينا برحابة الطبيعة وأنها حارسٌ مؤانس أمينٌ على قداسة هذا الحبّ، والشاعر في اختياره للعصفورة يشي بما يحمله من توق إلى السفر نحو مدن الحبيب حيث لا رقيب ولا واش؟

تتَماهى الوظيفة العنوانية في ظاهرها النصِّي مع محمول القصيدة في دلالة العبارات، ومرموزات الألفاظ، وإيحاءاتها، وتكتنف الأبيات بدءًا وانتهاءا تجربة الحبّ في تحدّيها لكافة القيود، وارتيادها لأجواز العالم، وانعتاقها من أسر المكان، ومن حدود الزمان، إنهُ حبٌّ يمتدُّ زمكانيا، ويجتاح الطبيعة بعناصرها جميعا، ويأخذ من جمالها ما يمنحه قوته، ونضارته، وغضارته، وحضوره، وانتشاءهُ ولذا ينفتحُ معجم القيرواني على حقل الغناء والموسيقى" اسجعي . نشيد . ألحان . غردي . الشادي " وقريبٌ من هذا ما نراه في وجدانيات الشابي من استحضار لقاموس الغناء إذ عالم هؤلاء موسيقى موقعة، وتطريبٌ ينتظم حركة الحياة وعناصر الوجود، و تسيجُ القصيدة في مجملها إحداثيات الزمن المتعاقب الذي يسجلُ تحيينه لحركة الأحداث، وتداعيات العواطف، وصور

التجاوب مع الطبيعة عبر الحقل الزمني الذي نعثر عليه في معجم متضمن لكلمات من نحو " قبل الضحى . قبل المغيب . الأمس القريب . الدهر . اليوم " أما المكان فيكاد يستولي على النظام الجملي، والكلمي في النص فينفتح على هذه الطبيعة الرومانسية كمكون تسبحُ في دائرته نفس الشاعر التي أخذت في الأبيات صورة العصفورة السابحة في أجواء الكون باحثة عن روح المحبوبة لتجد في عناصر المكان ما يملأ قلب الشاعر بالحب، و الشعر والذكرى ، والمعجم الطبيعي هنا معجم ربيعيٌّ الموسم يطفح بالشعر والتفاؤل " الوادي الخصيب . الدوح . الزهر . وارف الظل . الكثيب . الروض .." وشأن الشاعر شأن كافة الرومانسيين يغمر كلماته في مجالٍ من المشاعر المتذاوبة حلمًا، وإيحاءً بتناغم الحياة مع أحاسيسه التي تفيضُ تجاوبا مع جمال كلّ منظور حتى لقد جعل من الطائر معادلا لروحه الخفاقة الطموح.

الطبيعة بأصوات عصافيرها، وتثني غصونها، وفوح زهورها، ووارف ظلالها، وائتلاق ضحاها تشكل مادة المتن الشعري بدلالة الأفعال التي تنبض بالحركة والتوثب، وبتواتر الأسماء المعرفة التي توحي بألفة المكان، وأنس الشاعر بما يحيط بهِ لتعلقه بحضرة المحبوب، والكلمات في مجملها ناقلة لأوضاع هذه النفس في انسجامها مع مجموع تلك العناصر الطبيعية أثيرة الألوان، والأصوات والمرائي.

وجليٌّ في القصيدة إمعان الشاعر في تحقيق المظهر التفاؤلي للغته الشاعرة عبر تكراره لمجموعة الأساليب الأمرية في عدد من الأبيات على وجه التماثل(اهتفي قبل الضحى . اهتفي حيث الضحى)، وعلى وجه الترادف لدى تحيين زمن الهتاف، و الإنشاد (قبل الضحى . الشمس في خدرها) ، والشاعر في كل هذا يحملُ ألفاظه دلالة المعنى العام للنص الذي يصبُّ في حالة السرور والتفاؤل فلفظ الزهر، والثوب القشيب، ووارف الظلّ إنما تنقلُ إلينا وضع الاستبشار، والرضى بما تؤول إليه أيام الشاعر من وصل للحبيب، وانصرام لعهود الجفاء وانطفاء (حرّ اللهيب).

يصدرُ الشاعر القيرواني في توصيف حالته الشعورية وفي رسم المشاهد، والمناظر من كاميرا الذات الفردية الناطقة عن غربتها، وأشواقها، وحبها الصميم الذي يتجذرُ في الذكرى، ويمتدُّ في الحاضر والمأمول، ومن أنساغ العواطف المشبوبة ينسجُ القيرواني صوره التخييلية عبر صورة كبيرة ممتدة عبر تضاعيف المتن النصي تتجلى في حركة العصفورة التي تجوب أقطار الوادي الخصيب هاتفة مغنية، على امتداد النهار إنها عصفورة تستجيب للجمال الطبيعي، وتترك أثر توقيعها في الأدواح والدهور، وتنتهي حيث ديار الأحبة ومنزل الحبيب، وهذه الصورة في حركيتها الدائبة، واستغراقها لجميع الأبيات تمنح اللوحة التخييلية وحدة موضوعية وتماشجًا في النسيج العضوي للنص على الرغم من تعدد الألوان، والصور الجزئية في إطارها البلاغي، وهي صور متجددة مبتكرة مفارقة لموروث البناء التصويري اتكأت على الصورة الاستعارية المكنية جميلة الدلالة من نحو (سكنَ الدوح . اختال تيها . سمع الدهر .) وهي استعارات تحملُ طابع التشخيص والأنسنة للأشياء فوق ما نجد لبعض هذه النماذج الاستعارية من تعالق، وكثافة ومشهديَّة، وحركة حينَ تنقلُ إلينا أثرَ الألحان في نفس الشاعر ، وهي ألحان الذكرى، ومعزوفات الحب المحمول على أجنحة الأثير :

واسْكُبِـــي مِـــنْ كُـــلّ لحْـــنٍ قَطـــرَةً عَلَّـــني أُطْفِـــي بهَـــا حَـــرَّ اللهيـــبْ

ويمثلُ الإيقاع الموسيقي في شعر القيرواني كما هو لدى سائر الشعراء الرومانسيين مُعطى أساسًا في تشكيل القصيدة ذلك أن العالم في منظور هؤلاء أصوات منتظمة تأخذ أوتارَها من الطبيعة ،وتتجلى في ما يكتبه الشاعر لغة ناضحة بالنغم الذي يمد الصورة والكلمة بظلال الإيحاء ، فلا عجب أن نجد لفظ الموسيقى، والأناشيد وغير ذلك من الكلمات التي تؤلف قاموس الإيقاع حاضرة في هذا النص بما يؤكد هذا القول، وقد اختارَ الشاعر لرحلته الشعورية بحر الرمل ذي التفعيلات الصافية المتلاحقة:

فـــــاعلاتنْ فـــــاعلاتنْ فـــــاعلاتْ فـــــاعلاتنْ فـــــاعلاتنْ فـــــاعلاتْ

وهذا النظام من التوقيع منسجمٌ مع حركة المعنى، ودلالة الانتقال السريع لفاعل هذه الحركة في المشهد الشعري، وهو عصفورة الشاعر، أو نفسه المطمئنة للواقع الجديد، وقلبه الخافق بلحظات الحبّ السعيد رقصات الإيقاع المنتظمة، وتحولات الفعل السريعة عبر الأزمنة يوحي بالنشوة والفرح:

كُـــلُّ غُصْـــنٍ فَوقَـــهُ عُصـــفُورَةٌ مَـــنْ رَأَى المنـــبرَ مِـــنْ غَـــير خَطيـــبْ؟

وقد أجرى القيرواني في بعض التفعيلات من الزحافات الممكنة ما أورثها خفةً من نحو زحاف الخبن في الحشو بحذف الثاني الساكن من التفعيلة لتصبح فَعِلاتن، وكذلك القصر الذي التزمه في كل القصيدة بأنْ حذَف آخر السبب الخفيف فصارت فَاعلاتْ، وفي هذا الضرب من التوظيف للرمل تحققت خفة التفاعيل، وحسن ترجيعها، ولم يدَعِ الشاعر اغتنام المقابلة، والموافقة الصوتية بين العروض، والضرب فاستغلَّ عنصرَ التصريع في البيت الأول حيث اتفقت فاصلتا الصدر، والعجز بما يركزُ قدرا من الإيقاع المطلعي، وقد جاءت القافية على نحو من الاختيار الفني، فرأيناها موحَّدة لطيفة معتمدة على حرف الرويّ المقيد الساكن، وهو الباء (بيبْ . غيبْ . جيبْ) لكأنها أصوات لوقع العصافير المطرد على حواف الغصون، وفي نزوع الشاعر إلى تقييد القافية على هذا النحو تجديد صوتي بالنظر إلى ما يشيع في القصائد القديمة من لزوم القافية المطلقة، وفي ذلك حرية للشاعر في بذل المعنى دون قيد من معيار النحو لتوافق نهايات الروي، ولأنَّ هذا الأخير كانَ باءً فقد حظي في فضاء القصيدة بحضور قوي حتى لا يخلو منه حشو أي بيتٍ منها ولهذا الحرف طاقة التنغيم، والتوقيع، وهو الأنسب في سياق التعبير عن المواجد والعواطف، لذا سجل له حضورا في الشعرية العربية الغنائية، ولكونه يشترك مع الميم في مخرجه، ومظهره فقد لاحظنا تكرارا لصوت الميم بهذا الوجه مما حقق الانسجام والتشاكل في أنحاء النص، فوق ما كان من حروف الهمس التي تمثل خاصة رومانسية إيقاعية عبر اطّراد أصوات السين والصاد، والزاي بما ينقل أجواء النفس، ويعبر عن حالات بثها :

اسْـــجَعِي عُصْـــفورةَ الـــوادِي الخَصـــيبْ بِنَشِـــيـــدِ الحُـــبِّ في دَارِ الحَبِيـــبْ

واهْتِفِـــي قَبْـــلَ الضُّـــحى، والشـــمسُ في خِـــدْرِها، أوْ فَـــاهْتِفي قبـــلَ المغِيـــبْ

سَـــكَرَ الـــدَّوحُ عَلَـــى سَـــجْعِكِ فَاخْـــ تَالَ تِيهًـــا في تَثَنِّيـــهِ العَجِيـــبْ

وفق الشاعر في اختياره الوزني على نحو ينقلُ به انفعاله وموسيقاه كما يحقق انسجاما بين الشكل والمضمون، ويستثمرُ فضاء الإيقاع بما يحشد من توافق للحركات والسكنات ، وتكرار لها ولحروف الربط والجرّ، ولصيغ الأمر في صدور الأبيات (اسجعي . اهتفي . انعمي . اسكبي ..) مما يعكس تدفقا إيقاعيا يسري في جسد النص.

محمد الفائز القيرواني في قصيدته هذه صورة لتمظهرات الشعر الرومانسي الوجداني عبر توظيفه لممكنات اللغة وطاقاتها الدلالية، والمعجمية وفيما يقيمه من علاقات تخييلية جديدة بين عناصر الصورة الفنية، وبما يعزفه من ألحان المعاني، وترجيعات الأصوات والإيقاع معتدًّا بموسيقى الألفاظ، والحروف والتفاعيل في تعبيرها عن الذات الشاعرة وفي نقلها للأحاسيس والمشاعر.

أ د. سعد مردف